إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى ـ العدد الثالث ـ خريف ١٣٩٠ش / أيلول ٢٠١١م

رواية زمن البوح
بين الالتزام الدينى والاتجاه الواقعى

سيدابراهيم آرمن*
نيلوفر خدابخشى**

الملخص
القصّ هو سمة شبه ثابتة لدى الشعوب، والشعب العربى لم يكن بمعزل عن العالم، إذ عرفه منذ القديم، وحفظ بعضا من بطولاته، ومآثره، وتاريخه من خلاله. فعلى امتداد المسافة الزمنية الواضحة فى التاريخ العربى حفظت لنا كتب الأدب، المزيد من القصص، والنوادر، والحكايات، والسِيَر. أما القصة فى خصائصها الفنية فهى حديثة النشأة أخذها العرب عن الآداب الأوروبية وتأثروا فى أصولها ومذاهبها الفنية بتلك الآداب.
فجاء هذا المقال ليركّز على هذا اللون الأدبى عند الأديب الكويتى حمد الحمد الذى تزخر القصة عنده بالموضوعات الواقعية، وتنمّ عن التزامه الدينى وثقافته الإسلامية بحيث يتابع القارئ من خلال أحداث رواياته كافة التغييرات والتحولات الاجتماعية، والثقافية فى الكويت.

الكلمات الدليلية: حمد الحمد، القصة، الرواية، المضمون، الواقع.

*.عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى كرج – أستاذ مساعد.
**. خريجة جامعة آزاد الإسلامية فى كرج.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د.عبدالحميد أحمدى
Shams1516@yahoo.com
تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٤/٢٤هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٧/١٢هـ. ش

المقدمة

يعتبر الأستاذ حمد عبدالمحسن محمد الناصر حمد مواليد ١٩٥٤م من الروائيين المعاصرين بدولة الكويت.وقرر فى بداية الثمانينيات أن يتفرغ لكتابة المقالة والقصص القصيرة، وكان يرسل أعماله القصصية إلى جريدة الرأى العام وهى جريدة يومية تصدر فى الكويت.

صدر أول مجموعة للكاتب بعنوان (مناخ الأيام) وذلک عام ١٩٨٨م، وبعد صدور الكتاب شعر صاحبه بغبطة وهو يتعرف على بعض الردود ال‌إيجابية فى الصحف المحلية، فكتب الأستاذ أياد السبتى فى جريدة السياسة فى ٤-١٠-١٩٨٨م، كلمات مشجعة حيث يقول: بالأمس شعرت بالسعادة تغمرنى عندما ختمت قراءة كتاب حمد الحمد، مناخ الأيام الذى يؤكد خلاله مولد قلم قصصى كويتى يعرف كيف يعبر عن مشاكل ومشاعر بيئته بصدق دون تزييف.

أما الكاتب حسين العنزى فكتب فى جريدة الوطن بتاريخ ١٩-١٠-١٩٨٨م مشيداً وناقداً لمناخ الأيام بقوله: يمكننى أن أقول بـأن مجموعة مناخ الأيام تضيف بعدين أساسيين: أحدهما على مستوى الكاتب نفسه الذى استفاد من تجاربه القصصية متمكناً من أدواته متطلعاً لعالم أفضل ننشده جميعاً، وأما البعد الآخر فكان على مستوى القصة وتطورها.

والكاتب عندما أصدر تلک المجموعة لم يكن ينشد الشهرة وأضواء الإعلام، وإنما هى رغبة كامنة من الصغر بالمساهمة عبر الكتابة فى تسخير قلمه لمعالجة قضايا المجتمع، وكانت المجموعة الأولى هى صوت ذلک المجتمع الكويتى، وبالذات القصة الأخيرة، مناخ الأيام، والتى تتحدث عن أزمة سوق المناخ، وهى أزمة سوق الأسهم التى عصفت بالمجتمع الكويتى فى بداية الثمانينيات وتركت الكثير من الضحايا، وكان الكاتب أحد الشهود على أحداثها وذلک لكون مقر عمله فى البنک التجارى ملاصقا لسوق المناخ.

بعد تحرير الكويت وفى عام ١٩٩١م تمت بين كاتبنا وبين الأديبة ليلى العثمان مراسلات بشأن كتابة مناخ الأيام، وشجعته الأديبة للانضمام إلى رابطة الأدباء فى الكويت وهى جمعية نفع عام، لها تاريخ عريق تأسست عام ١٩٦٤م، والرابطة بمثابة نادٍ

للشعراء وكتّاب القصة والرواية والنقد والمسرح، وتصدر عن الرابطة مجلة لها تاريخ، هى مجلة البيان(مجلة ثقافية شهرية)، مستمرة بالصدور منذ الستينيات وما زالت.

دخوله فى رابطة الأدباء كعضو نشيط فتح له آفاقاً جديدة، وكانت أجواء الرابطة وما زالت مفعمة بالإبداع وذلک بسبب حضور كبار المبدعين الذين كان الكاتب يتابع أعمالهم ويشاهد صورهم على صفحات الصحف أو عبر التلفاز أو الإذاعة، ولكن الآن هو يلتقى بهم مباشرة، ويستمع إلى أحاديثهم فرحا.

واصل الأستاذ حمد الحمد مشواره فى الإبداع بنتاجات أهمها: ليالى الجمر، ومساءات وردية، والأرجوحة، وزمن البوح (البدايات)، وزمن البوح (التحولات).وتعتبر رواية زمن البوح التجربة الأولى عند حمد الحمد فى عالم الرواية؛ فيتكلم فيها عن المجتمع الكويتى ويختار أساليب جديدة فى توجيه بعض الانتقادات إلى عدة محاور يلقى هذا المقال الضوء عليها.

وتعدّ رواية زمن البوح (التحولات) آخر عمل روائى للكاتب، وهى بمثابة تكملة لروايته الأولى زمن البوح (البدايات)، وأحداثها تدور فى قالب اجتماعى يمثل التجاذبات الفكرية داخل المجتمع الكويتى فى الألفية الجديدة.

لم يتوقف الكاتب عن مساهماته الكتابية سواء بمقالاته فى الصحف المحلية أو بإصدار بعض الكتب، فقد أصدر عدة كتب بحثية ومنها كتاب مسافات الحلم وذلک فى عام ٢٠٠٥م، وهو كتاب بمثابة سيرة وثائقية للكاتب لأغلب ما سطره الكاتب من مقالات فى الصحف المحلية، وما كتب عن أعماله من قبل النقاد، ويحتوى على المقابلات التى أجريت معه منذ بداية رحلته للكتابة، حيث يمتاز كاتبنا بحفظه لكل ما كتبه منذ نعومة أظفاره.وصدر له فى بيروت مؤخراً فى عام ٢٠١٠م، عن الدار العربية للعلوم كتاب الكويت والزلفى هجرات وعلاقات وأسر، وهو كتاب يبحث فى العلاقة بين الكويت وإحدى مدن نجد، وهو بمثابة دراسة فى العلاقات التاريخية بين أبناء المنطقة قبل ظهور النفط؛ وقد لاقى الكتاب رواجاً منقطع النظير فى معارض الكتب فى الكويت والسعودية.

أما الموضوع الرئيس فى رواية زمن البوح هو مسألة الدين فى عصرنا، واختار

الكاتب شخصيتين مختلفتين أحدهما وليد عبدالله، وهو من الملتزمين بدين ال إسلام وممن يريد أن يعيش بالتزامات دينية فى المجتمع، وأما الشخصية الأخرى فهى منال، التى درست فى الجامعات ال أوروبية، وهى متأثرة من الثقافة الأوروبية بحيث تتكلم فى بعض الأحيان باللغة الإنكليزية، وترتدى ملابس غير مناسبة فى محل العمل؛ وكان وليد يريد أن يترک عمله لأجل وجود منال وسفورها.فالخلاف مستمر فى محل العمل بين وليد ومنال، وتعتقد منال أن وليد شخص متكبر ومتخلّف، وهناک بعض القضايا التى جرت بينهما وحدث ما حدث.

وفى الحقيقة يريد حمد الحمد أن يقول إننا مسلمون بالظاهر، ولكن أعمالنا تتعارض والتعليمات الدينية، مشيرا إلى قضية النساء فى المجتمع العربى وخاصة فى الكويت، وتأثّرهن بالثقافة الأوروبية دون وعى، ويقول: إن النساء يتستطعن أن يتعلّمن ويشاركن فى المجتمع وهنّ متحجّات وملتزمات بالأصول الاجتماعية والثقافية لمجتمعاتنا الإسلامية، لأن عدم الالتزام بالمعايير الإسلامية سينتهى إلى فساد المجتمع وتفکک أواصره.

هناک أسئلة كثيرة تدور حول رؤية حمد الحمد وتصوره للمجتمع الذى يرسمه، فأى مجتمع يقصد؟ وأى عالم يرسم؟

ونستطيع القول إن حمد الحمد فى روايته زمن البوح يعتبر من أصحاب الاتجاه الواقعى الذى جمع فيها بين الواقعية والالتزام الدينى؛ والقارئ حين يقرأ هذه الرواية يتشجع على إكمال قراءتها لأنها تنشأ من حياة الواقع، وترسم حقيقة حياة الناس من خلال النصوص المليئة بالوضوح دون أدنى تزييف للواقع وهذا هو الحدّ الفاصل بين واقعية حمد الحمد فى هذه الرواية والواقعية الأوربية النقدية منها والطبيعية والتى لم تصوّر الواقع كما ادعت بل صوّرته من خلال فلسفة فكرية سوداء آمنت بها.

تحليل ودراسة فى مضامين الرواية

الدين والحياة

يُعدّ الدين وتأثيره على مختلف أفراد المجتمع من القضايا المهمة التى طالما شغلت

فكر الأديب فى سرده لهذه الرواية، فهو يشير فيها إلى أنّ المجتمع الكويتى مجتمع مسلم، ولكن للأسف لايراعى واجبات الدين ومتطلباته. فشخصيات هذه الرواية مختلفة ومتعددة، ولكنها لاتهتمّ بالدين وقضاياه اللهمّ إلا شخصيتين وهما وليد عبدالله والأستاذ عبدالهادى؛ وفى الحقيقة يريد الكاتب أن ينبّه أفراد المجتمع رجالا ونساءا إلى القيام بواجباتهم تجاه مجتمعهم وذلک بالاعتماد على المبادئ الإسلامية.

وهذه القضية تبدو واضحة وجلية من بداية الرواية حتى نهايتها؛ ويتجلى لنا ذلک بكل وضوح فى الخطاب الذى أجراه الكاتب على لسان الأستاذ عبدالهادى قائلا: «يا بنى .. إنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شىء واجب على كل مسلم .. واحنا والله العظيم مقصرين .. مقصرين يا ابنى.» (الحمد، ٢٠٠٩م:١٢٩)

ويشير الكاتب فى روايته هذه إلى أنّ الناس يتظاهرون بالإسلام، ولكنهم لايدركون قيمة الدين وفوائد العمل بمبادئه؛ وهذا الأمر يعتبر أمراً خطيراً للمجتمع الإسلامى، خاصة مجتمع الكويت؛ وفى الحقيقة يرى حمد الحمد أن: «استمرار هذا الأمر سينتهى إلى إزالة الدين من الحياة وسيبقى من الدين الاسم فقط.»

الحجاب

الحديث عن الملامح الإسلامية هو نفسه الحديث عن الملامح العربية العامة، كون الهجوم مسدداً إلى الإسلام ولغته المقدسة وحضارته العريقة السامية ومبادئه الإنسانية الخالدة؛ فمنذ الحملات الصليبية الأولى والمعركة لم تنته؛ فتح الغرب نيرانه وإلى الآن لم يخمدها؛ هذه النيران التى لم تكن فقط فى المظهر العسكرى، وإنما لاتزال إلى الآن نيراناً تحاول أن تدمر القيم والمبادئ، وتغيّر ما استطاعت التغيير كى تسهل عليها السيطرة على اعتبار أن الإسلام عقبة كأداء فى وجه المهمة الغربية. (المعوش، ١٩٩٢م: ٢٢- ٢٣)

فبإلقاء نظرة عابرة وسريعة على ما تمّ تدوينه فى النتاجات الأدبية عن المرأة وحجابها، نجد أنّ استعراض الشعر لسفور المرأة وحجابها لم يكن بالقليل ولكنّه غير منتظم ومبوب فى معظمه، وهذا يدلّ على أنّ النساء العربيات لم يكنّ كلهن سوافر كما لم يكنّ كلهن محجبات، والأهم من ذلک أن السفور كان من عوامله الأجواء الثقافية

الخاصة أو الظروف الاقتصادية الصعبة أو الفتن والحروب المفروضة المذللة للمرأة.

إنّ المتتبع لأخبار ما يتعلق بسفور المرأة أو سترها قد يجد أن الأخبار الواردة فى تستر المرأة العربية موفورة كوفرة أخبار سفورها، لكن السفور خلافاً للفطرة السليمة العفيفة التى أودع لها وجَبُل عليها الإنسان، كان لها من دواع مختلفة نشأ معظمها متأثراً بالآداب والتقاليد البالية الجاهلية، ولما بعث النبى صلى الله عليه وآله، جاء بثقافة إسلامية متوقية ومتحذرة بكثير من تلكم الفتن التى كانت تثار من قبل المرأة بسفورها وتبرجها.

إنّ هذا العرف (السفور)، قد اندرس بعد ظهور الإسلام وبقى الالتزام بالحجاب فى معمعة الحرب، وصروف الدهر غاية اعتقادية ذات قيمة ملموسة لن تتخل عنه المسلمة العربية المؤمنة بالله ورسوله. وقد بلغ ذلک مبلغ کماله عند عترة النبى(ص). (الشيرازى، ۱۳۸۸ش: ۱۵۳)

يعتبر موضوع الحجاب موضوعاً هاماً فى هذه الرواية؛ فالصراع الذى حدث بين منال مشارى ووليد عبدالله ما هو إلا بيان واضح لهذه القضية، فتربية النساء بالثقافة الأجنبية وغير الإسلامية لها الأثر السلبى على المجتمع ممّا يؤدّى إلى هدم الدين بيد النساء، لأنهنّ يعتبرن معلمات المجتمع، أفرادا وأسرا، أطفالا وكبارا. فكل زلّة فى التعامل مع النساء ستنعكس مباشرة على المجتمع؛ وهذا لايعنى حجبها عن التعرف على ما لدى الشعوب الأخرى من ثقافات ولكن شريطة أن لاتتحوّل إلى مقلّدة عمياء؛ يقول حمد الحمد: إنّ النساء يستطعن أن يستفدن من ثقافات مختلفة مع الحفاظ على الأصول الإسلامية.

ثمّ يشير إلى الارتداء السيء للمرأة فى المجتمع الكويتىّ، ويصف ما ترتديه سهاد، إحدى شخصيات الرواية، بقوله: «فالزّىّ الذى ترتديه سهاد بدا فاضحاً، تنورة لاصقة تظهر أكثر مما تبطن، منظر مؤذ، و...» (الحمد، ۲۰۰۹م: ۵۱)

ويقول إنّ حجاب المرأة فى محل العمل هام جدا، ويجب عليها أن تعمل بشكل صحيح فى زى مناسب، فالزى إذا كان غير مناسب سينتهى إلى ضعف فى العمل وفساد بين العاملين ممّا يحول دون الوصول إلى المستوى المطلوب فى مجال العمل.

حقيقة الجمال

جمال الرجل يؤثر فى المرأة كما أن جمال المرأة يؤثر فى الرجل أكثر مما يؤثر جماله فيها، ولكن لايؤثر بنفس مقدار تأثيره بجمالها، وهذا الجمال يختلف فى مواصفاته من امرأة لأخرى، وغالباً ما يلفت انتباه المرأة أدب الرجل، وقوّةشخصيته، وبلاغة حديثه، وجمال صوته؛ أما ما يلفت انتباه الرجل بشكل كبير جداً، جمال المرأة الجسمى ومظهرها الخارجى، ويزداد هذا الجمال تأثيراً، إذا ما اقترن بالعلم، والثقافة، والذكاء.

فمن مواصفات الرجل الذى تنجذب إليه المرأة مثلاً، ما قالته امرأة من قبيلة حمير، عندما سئلت عن الرجل الذى تراه زوجاً مناسباً لها كان ردّها هو: «أن يكون محمود الأخلاق، مأمون البوانق، فقد أدركت به بغيتى؛ على أنه ينبغى أن يكون كفواً كريماً، يسود عشيرته ويرب فصيلته، لاأتقنع به عاراً فى حياتى ولاأرفع به ستاراً لقومى بعد وفاتى.» وعندما سئلت بعض الفتيات عن المواصفات التى يريدونها بزوج المستقبل، قالت: غيث فى المحل، ثمال فى الأزل، مفيد مبيد. (محمود القاسم، ٢٠٠٧م: ٢٨)

يستعرض الكاتب موضوع الجمال فى هذه الرواية، ويشير إلى أن ظاهر المرأة هام جداً عند الرجل الكويتى، بل هو من أهمّ المواصفات عنده فى اختيار زوجة المستقبل؛ ثمّ ينتقد هذه الظاهرة الاجتماعية وما لها من أثر سلبى على المجتمع، ويشير إلى أنّ المرأة يمكن أن تكون غير متمتعة بالجمال الظاهرى المنشود ولكن قد تكون مثقفة، تملک الصفات الأخلاقية الإيجابية؛ فإذا فرّط المجتمع فى هذا الجانب فستكون الغاية غير محمودة، فيوضح ذلک للمتلقى من خلال شخصية زهور؛ فزهور امرأة حسنة الأخلاق ولكن الجمال الظاهرى عندها كان أقل بالنسبة للبنات الأخريات، فلذا لم يتقدّم إلى خطبتها أيُّ عريس، فتتخذ زهور قراراً أن تكون بنتاً عصرية، ممّا يؤدّى إلى إيجاد الأزمة النفسية عندها.والكاتب يريد أن يقول إنّ هناک لكل شخص شخصية متفاوتة، ويجب على الرجل ألاّ يهتم بظاهر المرأة فقط، ويقول: إنّ هذا الأمر يؤدّى إلى أن يرى الرجل فى المرأة الجمال والموضة فقط.

التعاون الاجتماعى

التعاون هو ارتباط مجموعة من الأفراد على أساس من الحقوق والالتزامات المتساوية للمواجهة وللتغلب على ما قد يعترضهم من المشاكل الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو القانونية ذات الارتباط الوثيق المباشر، بمستوى معيشتهم الاقتصادية والاجتماعية سواء كانوا منتجين أو مستهلكين.وهو كذلک سلوک إنسانی شوهد فی مختلف العصور البشرية، لجأ إليه الإنسان فی عمله وتصرفاته الخاصة والعامة. وقد كان فی الماضی والحاضر وسيلة للدفاع عن الحقوق لمكافحة الظروف الاقتصادية السيئة، نتيجة للنظم الاقتصادية المختلفة منذ بدء ظهور الثورة الصناعية، والتطور التجارى فی العالم مما ساعد على ظهور طبقات الإقطاعيين، والليبراليين، والاشتراكيين.

فالتعاون الاجتماعی من الأمور التی ركّز عليها الكاتب فی أكثر أوراق هذه الرواية، والحقيقة أن شخصيات الرواية لديهم شعور بالتنفيس عن الآخرين عند مواجهة المصائب؛ إذن فذووا الكربات فی هذه اللوحة الفنّية لايشعرون بالوحدة فی التصدّی لمشاكلهم.

ويريد الكاتب من خلال تقريره لهذه الفكرة تنبيه الآخرين على أنه يجب على كلّ شخص أن يساعد زميله فی مشاكله، فمثل هذا النداء الإنسانی يتجلّى فی جميع آثار حمد الحمد خاصة فی زمن البوح، والأشخاص فی زمن البوح متحابّون متعاضدون يحبون بعضهم البعض، فمثلاً يساندون مجبلاً، لأنّه مريض، ويحتاج إلى عملية جراحة القلب، فيقفون إلى جانبه، ويساعدون عائلته، حتى الفرّاش سعيد يقوم بهذا الدور الإنسانی؛ فمنالُ أيضاًتساند زهورَ فی أزمتها النفسية، ويساعد الأستاذ عبدالهادی وليد عبدالله.فالملتزمون وغيرهم فی هذا الأمر سواء.

المرأة

فی ظل النظام الأبوی تُزاح المرأة من دائرة الضوء إلى الظل. وقد التفت كثير من المسلمين إلى ظاهرة غياب المرأة عن مسرح الحياة العامة، وتأثير هذا الغياب فی نهضة المجتمع، وامتد هذا التأثير ليصاب البناء القصصی، فی رأی بعض المبدعين النقاد، بضعف الفن القصصی.

فعالج رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١– ١٨٧٣م) موضوع أمّية البنات فى كتابه المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين، على أن قاسم أمين أفرد، فى كتابيه: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة، مساحة كبيرة لقضية تحرير المرأة. فقد رأى أن ثمة علاقة بين المرأة فى المجتمع وأخلاق الأمة، وأن لُبّ المشكلة الاجتماعية هو مكانتها. وتلك لاتتحدد إلا عن طريق التعليم، مما يسهم فى وعى المرأة بذاتها وبما عداها، ويرتقى برؤيتها للعالم. وقد رأى قاسم أمين أن حرية المرأة هى الأساس والمقياس لكل أنواع الحرية. فثمة علاقة جدلية بين القهر والحرية، داخل البيت وخارجه؛ إن شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية، والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية. (حجاوى، ٢٠٠٣م:٤١٢)

إنّ صورة المرأة التى ظهرت فى معظم أعمال حمد الحمد جيدة، فهى غالباً تكون جميلة مثقفة وعصرية، وفى جميع آثاره نجد مكانة خاصة للمرأة، والمرأة فى رواياته خاصة رواية زمن البوح، تذهب إلى الجامعة، والمرأة الأمية ليست موجودة فى آثاره، ونشاهد نوعاً من الحرية والاستقلال عندهنّ.

والنساء عند حمد الحمد يستحقن أن يشاركن فى العمل ويدرّسن حتى المراحل العالية، ولاتوجد ربّات البيوت فى آثاره، والنساء دائماً خارج البيت، ويعملن مثل الرجال، ويعتبرن من المحظوظات.

وقد يعود سبب هذا الأمر إلى الرفاهية الموجودة فى المجتمع الكويتى الحديث، لأن العائلات ترغب فى استغلال هذه الثروات الهائلة، وهم يجلبون عادة الخادمات الأجنبيات من الدول الفقيرة للعمل فى البيوت. ولكن فى بعض الأحيان يوجد نوع من التشاؤم بالنسبة للمرأة، فمثلاً يقول الأستاذ عبدالهادى: «والنساء معروفات بالدهاء، وقادرات على إيقاع الرجل فى مشاكل كثيرة.» (الحمد، ٢٠٠٩م:٦١)

والقول الآخر: «لا يا ابنى .. التفاهم مع النساء مش زى التفاهم مع الرجال.» (المصدر نفسه:٦١) وفى موضع آخر يقول: «تذكر وليد قول والده: الحرمة ما لها إلا العين الحمراء.» (المصدر نفسه:٦٠) والحديث الآخر: «إنى .. إذا كان عندک مشكلة مع امرأة يفترض أن تحدثها بهدوء وإلا تؤذيک بداهية.» (المصدر نفسه: ٦٠) وفى الحقيقة يصف الكاتب النساء بالدهاء فى أكثر مشاهد هذه الرواية كما شاهدنا.

الأوضاع الاجتماعية

إن المجتمعات أساس ترتكز عليه دراسة علوم الاجتماعيات. وهى مجموعة من الأفراد تعيش فى موقع معين، ترتبط فيما بينها بعلاقات ثقافية واجتماعية، يسعى كل واحد منهم لتحقيق بعض المصالح والاحتياجات.

تقابل كلمة مجتمع فى الإنكليزية كلمة Society التى تحمل معانى التعايش السلمى بين الأفراد، بين الفرد والآخرين. والمهم فى المجتمع أن أفراده يشاركون هموماً أو اهتمامات مشتركة، تعمل على تطوير ثقافة ووعى مشترک يطبع المجتمع وأفراده بصفات مشتركة تشكل شخصية هذا المجتمع وهويته.

وأكد الإسلام فى مواضع كثيرة من القرآن، بأن المسلم أخو المسلم، والمؤمن أخو المؤمن، وأنه لا فضل لعربى على أعجمى، ولا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى. قال تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات: ١٣)

هذه الآية قد قضت على العصبية، وقضت على العنجهية القبلية. فالتقوى هى مقياس التفاضل عند الله سبحانه وتعالى، فأكرم الناس عند الله أكثرهم تقوى، سواء كان هذا الإنسان عربياً أم فارسياً أو رومياً أم مهما كان.

وهنا يتضح لنا أن من أهم مميزات المجتمع الإسلامى، أنه قائم على الأخوة الإيمانية، هذه العلاقة الإيمانية التى عجزت كل المنظومات الفكرية عن أن تحدث مثلها، لم يستطع نظام أن يحدث علاقة بين أتباعه أسسها العقيدة، الأساس الاعتقادى لم ينجح إلا فى الإسلام، يدعون إلى أنواع الصور المشتركة: من اللغة، والأرض، والتاريخ، وما إلى ذلک، هذا كله لم يعط نتيجة، الذى أعطى نتيجة هى الأخوة فى الله والأخوة الإيمانية. (جورجس أبوجودة. ٢٠٠٨م: ١٤٨- ١٨١)

فالصورة التى ترسمها هذه الرواية حول المجتمع الكويتى هى صورة إيجابية يشعر القارئ من خلالها أنّ نوعاً من الهدوء مخيّم على المجتمع الكويتى لأن كل شخص فى الرواية يعيش موسرا ويعمل عمله دون إيجاد اختلال فى عمل الآخرين، وأما الأجانب مثل مجبل، فظروفهم المعيشية قاسية إلى حدما لأنّهم لايملكون الجنسية.

يتحدث الكاتب عن وليد ومنال وبعض المشاكل التى يواجهانها فى تربية أولادهما. فيذكر قصّة خالد، ذلک الفتى الذى حالت القيود غير اللازمة التى فرضها والداه عليه من أن يتربّى تربية أساسية، فلم يتمكّن من إكمال دراساته فى الجامعة فى فروع مثل الطب، والهندسة و... لأنّه كان يريد أن يكون موسيقاراً. «وأكمل وليد حكاية ذلک الغياب وكيف أن خالد اعترف بحبه للموسيقى، وأنه لايفكر بتاتاً بالالتحاق بالجامعة كما تريد والدته، ولايود الالتحاق بكلية الشرطة كما يريد خاله، وإنما بعد انتهاء الدراسة الثانوية لديه رغبة بأن يلتحق بكلية الدراسات الموسيقية ليصبح موسيقارا كبيرا.» (الحمد، ٢٠٠٩م: ٨٩)

والمسألة الأخرى التى يشير إليها الكاتب فى هذا الكتاب هى مسألة الزواج دون أن يرغب أحد الزوجين فى الآخر، ويتكلم حول الدكتور فواز؛ ويحكى الدكتور فواز عن لحظات تخرجه من الجامعة وإكمال دراسة الماجستير وعودته إلى الكويت، وترتيب وليمة لأعداد كثيرة من أفراد القبيلة والأحباء. وقال والده بعد مدة: «يا ولدى يا فواز الفرحة بنخيلها ثنتين.» (الحمد، ٢٠٠٩م: ٩٩)

وقال: «أنت مالک يا ولدى يا فواز إلا بنت عمک فاطمة بنت عمک مطلق وعمک الحين معانا وخير البر عاجله.» (الحمد، ٢٠٠٩م: ٩٨) «كلام أبوک لازم تسمعه، الرجال بمثل سنک ماله إلا الزواج، وإذا ما تزوجت ببنت عمک من ياخذ بناتنا.. ها شتقول ترى بقوم بروح.» (الحمد، ٢٠٠٩م: ١٠٩)

وبعد مدة، شعر أن فاطمة على صغر سنها، امرأة من قرن مضى وولى، غير أن فواز استطاع أن يتعايش مع هذا الوضع، وأن يساير الحياة، وأن يكمل رسالة الدكتوراه بالخارج بمفرده، بعد أن رفضت فاطمة السفر وأعلنت، ما أحبّ أروح بلاد الكفار، روح بروحک الله يسهل عليک.

ولهذه القضايا، أراد الدكتور فواز أن يتزوج بالدكتورة هديل للمرة الثانية، وذهب مع الدكتور وليد لخطوبة هديل وقال أبوها: «حنا ما نقرب إلا اللى منا وفينا.» (الحمد، ٢٠٠٩م: ١٧٨)، ورفض أبوها هذه المسألة وفشل الدكتور فواز للمرة الثانية.

والكاتب فى الحقيقة يرفض فكرة الزواج دون الرغبة، والزواج التقليدى، لأن هذا

الأمر ينتهى إلى إيجاد الأزمة النفسية فى الشخص، وإيجاد المشاكل المتعددة فى الحياة الزوجية، وحدثت هذه القضية لشخصية أخرى، باسم سارة وكانت سارة تزوجت بشخص أجنبى باسم سامر، وبعد مدة ولأجل ما واجهته من ضغوط كبيرة من جانب المجتمع طلقت سارة، «قالت الموظفة لسارة: من قال لكم تتزوجون أجانب.. عيال الديرة شكثرهم. ردت سارة بغضب: شتقولى شنسوى أذبح زوجى أو أطلقه؟!» (الحمد، ٢٠٠٩م: ١٦٣) «ضحكت الموظفة وهمست فى أذنها: إلا ما يقصد تذبحين زوجک لكن بعض الكويتيات حتى يحصلون على الجنسية لأولادهم، بدل بهدلة الإقامات يتفقون مع الزوج الأجنبى على الطلاق.» (الحمد، ٢٠٠٩م: ١٦٣)

فعلى أى حال، تحدّث الكاتب عن مشاكل الناس فى مجتمع الكويت خاصة مسألة الزواج التقليدى، ويبدو حمد الحمد وكأنه طبيب نفسى، يفحص المريض ويجد فيه علائم بعض الأمراض ثم يريد أن يعالجها بالكلام الجيد والأسلوب الرشيق.

ويشير الكاتب أيضا إلى بعض المجتمعات المسلمة، ومشاكلهم. مثلاً يتحدث عن معاناة المسلمين فى البوسنة وكشمير، ويقول إنّ المسلمين يواجهون الحرب فى أنحاء العالم، وفى قسم آخر يتحدث عن معاناة المسلمين ومعاناتهم فى فلسطين.

الأوضاع الثقافية

ثقافة المجتمع يقصد بها ما يسود فيه عادة من أنماط السلوک والعادات والمعتقدات والآداب والفنون والتاريخ والتراث واللغة وكل ما يتصل بشىء من ذلک. وهذه العناصر الثقافية مجتمعة هى التى تشكل للمجتمع طابعاً خاصاً به، يميزه عن غيره من بقية المجتمعات. ليس هذا فحسب، بل إن ثقافة المجتمع هى التى تشكل فكر أبنائه وتحدد توجهاتهم.

ولأن المجتمعات تتعدد فيها أنواع الثقافات فإنه من المتوقع أن تتعدد فيها أيضاً أشكال الفكر تبعاً لذلک، خاصة ما كان منه متصلاً بميادين الحياة الإنسانية الواسعة، وبسبب هذا التعدد فى أشكال ثقافات المجتمعات يظهر غالباً التمايز فى الفكر المنسوب إليها، فيظهر التمايز ما بين فكر غربى وآخر عربى وثالث شرقى، إلخ...، تلک التقسيمات

المتداولة بين الناس.

إلا أنه فى هذا العصر بعد أن تقاربت المسافات بين المجتمعات وتلاشت الحدود الثقافية، أمكن لأفكار المجتمعات الأقوى أن تتسلل إلى المجتمعات الأضعف وأن تختلط بما فيها من ثقافة محلية فنتج عن ذلک أفكار هجينة، غلافها الظاهر متسم بسمة المجتمعات القوية (غالباً المجتمعات الغربية)، وباطنها معجون بالثقافة المحلية التى لها من الرسوخ والتسلط ما يجعلها تتدخل لتعيد تشكيل عناصر الأفكار المنسوبة إلى المجتمعات الأقوى.

ولعل هذا يفسر لنا كيف أن المجتمعات على اختلاف ثقافاتها، تلتقى غالباً على أفكار عامة من إبداع المجتمعات الغربية، كالأفكار حول الديمقراطية، والعدالة، والحرية، والخير، والحق، والجمال، و...إلخ، قائمة الأفكار المتعلقة بالقيم الإنسانية، لكنها عند التطبيق لشىء من ذلک، تتفاوت فيما بينها تفاوتاً شاسعاً، بسبب الاختلاف فى العناصر المكنونة لتلک الأفكار والتى هى من نسيج الثقافة المحلية للمجتمع نفسه.

والثقافة ليست فرعاً ثانوياً من فروع الحياة الاجتماعية، إنها أساس الحياة، والثقافة ليست سلاحاً فى يد الناس، إنما هى فى صميم حياة الشعب الراقى، وبدونها ليس له حضارة ولا تراث فى وجوده، ولاتكون للأمة خارجها نهضة خلاقة ومبدعة. فالنهضة الحية شأن ثقافى، يتكامل أبداً بدون حدود، ضمن المجتمع الحى الذى يشهد ولادة الإنسان الجديد، الذى هو وحده القادر على حمل النظام الجديد وتنميته وتحدى العالم به.

الواجب الإنسانى للوقوف معنا حتى نحمى الحضارة الإنسانية التاريخية، فلايقفون إلا علينا، ليدرسوا ما تعمر ونبنى على أيدى أسلافنا من قبل جلاء التاريخ، وليقيموا مهداً ظلامياً جاهلاً ومتخلفاً، يسوده الفقر، والجهل، والتعصب، والهمجية. (جرجس أبوجودة، أيلول ٢٠٠٧م: ١٨)

فإذا انتقلنا إلى الرواية سنرى من خلالها المستوى الثقافى فى الكويت رفيع جدّا لأنّ شخصيّات الرواية معظمهم من الجامعيين، فمثلا منال مشارى، ووليد عبدالله من الذين تخرّجوا من الجامعة، وحصلوا على درجة الماجستير؛ فدرست منال فى المدارس

الأجنبية فى الكويت، وهى متأثرة جداً بالثقافة الأجنبية، ووليد متأثر من الثقافة الإسلامية والعربية.ونفهم أنّ الثقافتين موجودتان فى الكويت، الثقافة الأجنبية، والثقافة الإسلامية. وأكثر الأشخاص الذين يذهبون إلى المدارس الأجنبية بالطبع يتأثرون بالثقافة الأجنبية. والواقع أن حمد الحمد يشير فى نتاجه هذا إلى الجدل القائم الموجود بين هاتين الثقافتين مقدما بعض الحلول حيث يرى أن العودة إلى الثقافة المحلية والتمسک بها يعتبر العلاج الأمثل لمثل هذه الظاهرة التى شاعت فى المجتمعات الخليجية بسبب انفتاحها على الثقافات الأجنبية.

النتيجة

يمكننا اعتبار حمد الحمد من الأدباء المتمسكين بالعادات والتقاليد العربية والمبادئ الإسلامية، ومن الداعين إلى إعادة مثل هذه العادات والتقاليد والمحرّضين على الرجوع إلى تلک المبادئ القيمة السامية.كما يعدّ روائيا لايعتمد فى خلق نتاجاته على الخيال فحسب، بل يستمد فى خلق أحداث رواياته من حياة الواقع وخاصة مجتمعه الذى يعيش فيه ليصور همومه، وهواجسه، والمخاطر التى تهدد هذا الكيان الوطنى.وهذا ما يجعل نتاجاته مهبط اهتمام الخليجيين عامة، وأبناء بلده بشكل خاص.وعلى هذا الأساس فالرواية التى عالجناها لم تبق أحداثه بين الدفتين بل اجتازت ثنايا الكتاب لتتحول إلى مسلسل اجتماعى تم بثّه عبر بعض القنوات الخليجية.

وهذه الأمور الهامة التى تعانى منها كافة المجتمعات الخليجية من شأنها أن تكون موضع اهتمام باقى الروائيين الذين نرى عددهم يزداد بشكل مطرد، ونقرأ عنهم روايات، وقصصا، وأقصوصات فى الكتب، والمجلات، والصحف العربية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

جرجس أبوجودة، فاروق. ٢٠٠٧م. *الثقافة فى المجتمع*. العدد السادس والعشرون. أيلول.

--------. ٢٠٠٨م. *مجلة كلية الآداب لجامعة القاهرة*. الماكروديناميكيا الاجتماعية. العدد الثامن

والستون. صص ١٨١–١٤٨.

حجاوي، غادة وإلياس البراح. ٢٠٠٣م. *الأدب في الكويت خلال نصف قرن*. الكويت: مطابع الملك.

الحمد، حمد. ٢٠٠٩م. *زمن البوح*. الكويت: مكتبة العروبة.

الشيرازي، سيدحيدر. ١٣٨٨ش. *فصلية التراث الأدبي*. أسباب ستر المرأة وسفورها في شعر العصر الجاهلي. السنة الأولى. العدد الثالث. صص ١٨١–١٥١.

محمود القاسم، أحمد. ٢٠٠٧م. *ديوان العرب*. تموز.

المعوش، سالم. ١٩٩٢م. *الملامح الإسلامية في الرواية العربية*. دار الهادي: بيروت.